

الرضا والدار الآخرة



obeikandi.com

الرضا

والدار الآخرة

لا أَتَصَوَّرُ أَنَّ أَحَدًا تَتَحَقَّقُ لَهُ نِعْمَةُ الرُّضَا - كَمَا يَنْبَغِي - بِغَيْرِ
الإيمان بالدارِ الآخرة، وَمَا فِيهَا.

فَالرُّضَا عَنِ اللَّهِ إِيْمَانٌ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالدَّارِ
الْآخِرَةِ، وَإِيْمَانٌ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

فَالْإِيْمَانُ بِالْأَخِرَةِ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيْمَانِ.

وَالدَّارُ الْآخِرَةُ لَيْسَتْ بِمَعْرُوفٍ عَنِ دُنْيَانَا.

وَدُنْيَانَا مَزْرَعَةٌ لَهَا، وَمَقْدَمَةٌ لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا.

وَكَأَنَّ يَوْمَ يَمُضِي - بَلْ كُلُّ لِحْظَةٍ تَسْرِي - تَقَرَّبُ مِنَ الْآخِرَةِ، وَتُبْعِدُ
عَنِ الدُّنْيَا.

« فَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ كَالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَسَاعَ بَيْنَهُمَا كُلَّمَا اقْتَرَبَ

مِنْ أَحَدِهِمَا بَعُدَ عَنِ الْآخَرِ. »

وَفِي الْآخِرَةِ الْجَزَاءُ الْحَقُّ، الَّذِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُفْهَمَ حِكْمَةُ الْخَلْقِ بِغَيْرِهِ؛

فَبِغَيْرِ الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ يَكُونُ الْخَلْقُ عَبَثًا وَبَاطِلًا، وَحَاشَا أَنْ يَكُونَ.

إِنَّ الْجَزَاءَ فِي الْآخِرَةِ هُوَ الَّذِي تَتَحَقَّقُ بِهِ الْحِكْمَةُ فِي أَنْ تَكُونَ

الدُّنْيَا دَارَ امْتِحَانٍ وَاخْتِبَارٍ.

فَالدُّنْيَا مُقَدَّمَةٌ، وَالْآخِرَةُ نَتِيجَةٌ. وَلَا فَصْلَ بَيْنَهُمَا.

وَاسْتِيْفَاءُ الْحُقُوقِ فِي الدُّنْيَا - وَحُدُودُهَا - أَمْرٌ يَصْعَبُ تَحْقِيقَهُ.

وفي الدنيا تَتَنَازَعُ الأَهْوَاءُ والشَّهَوَاتُ، وَتَتَصَارَعُ المَيُولُ والرَّغَبَاتُ.
وفي الدنيا ظَالِمٌ وَمَظْلُومٌ، وَمُعْطَى وَمَحْرُومٌ، وَفِيهَا مُحْسِنٌ وَمُسِيءٌ،
وَمُفْسِدٌ وَمُصْلِحٌ.

فَهَلْ تُطَوَى صَفْحَةٌ دُنْيَانَا دُونَ عَدْلِ وَإِصَافٍ، وَحِسَابٍ وَجَزَاءٍ ۱۹
إِنَّ رِضَا الْإِنْسَانِ عَنِ رَبِّهِ - وَهُوَ يُؤْمِنُ بِأَخْرَجَتْهُ - يَجْعَلُ رَجَاءَهُ فِي الْعَدْلِ
يَقِينًا لِأَشْكَ فِيهِ؛ فَقَدْ يُظَلَّمُ الْإِنْسَانُ مِنْ غَيْرِهِ وَهُوَ يُبْغِضُ الظَّالِمَ، وَيَكْرَهُ
الظَّالِمِينَ، وَلَكِنَّهُ يَرْضَى عَنِ رَبِّهِ؛ لِأَنَّهُ يُوقِنُ أَنَّ حَقَّهُ لَنْ يَضِيعَ بَيْنَ يَدَيْهِ.
فَمَا فَاتَهُ هُنَا سَيَلِقَاهُ هُنَاكَ.

فَتَقْرِيرُ الْيَوْمِ الْآخِرِ - تَقْرِيرًا قَاطِعًا فِي الْإِعْتِقَادِ وَالْوَاقِعِ - يُفَسِّرُ لَنَا
كثِيرًا مِنَ الْمُبْهَمَاتِ الَّتِي لَا تَسْتَقِيمُ - أَبَدًا - مَعَ حِكْمَةِ الْخَلْقِ، وَإِحْكَامِ
الصَّنْعِ، وَخَلْقِ الْإِنْسَانِ.
يُفَسِّرُ لَنَا قَضِيَّةَ إِنْسَانٍ بَاتَ مَظْلُومًا، وَخَرَجَ مِنْ دُنْيَا النَّاسِ مُحْتَرِقِ
الْكَبِدِ، مَشْوِيٍّ الْفُؤَادِ.

فَالْعَدْلُ يَقْتَضِي أَنْ يُنْصَبَ الْمِيزَانُ، وَأَنْ يَتِمَّ الْحِسَابُ، وَيَقَعَ الْجَزَاءُ.
وَهَذَا مَا قَرَّرَهُ الْإِسْلَامُ، وَأَمَّنَ بِهِ الرُّسُلُ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُمْ، وَهُمْ
الرَّاضُونَ عَنِ جَمِيعِ الْأَحْوَالِ.

وَالَّذِينَ يَرَوْنَ غَيْرَ ذَلِكَ لَنْ يَنْقَطِعَ السَّخَطُ مِنْ حَيَاتِهِمْ، وَلَنْ يَتَوَفَّرَ لَهُمْ
الرِّضَا بِحَالٍ.

الْعَدْلُ يَقْتَضِي أَنْ يُنْصَبَ الْمِيزَانُ وَالْأَنَّ كَانَ عَبَثُ الْخَلْقِ أَوْسَعَ مَدَى
مَنْ أَنْ تَتَّصِرَهُ أَذْهَانُ الْبَشَرِ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ غَيْرَ مَلُومٍ إِنْ هُوَ أَسْفَأَ

بِعَرَائِزِهِ عَنِ الْحَيَوَانِ.

وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَحْسِمُ الْقَضِيَّةَ، وَيَحْكُمُ فِيهَا بِتَكْرِيمِ
الْإِنْسَانِ، بِجَعْلِهِ مَسْئُولاً عَنِ عَمَلِهِ، مُلَاقِياً جَزَاءَهُ.

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ

مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿١٧﴾ (1).

وَالْتَقْرِيرُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ - مَعَ كَوْنِهِ يُكْرَمُ الْإِنْسَانَ إِلَى أْبَعَدِ حُدُودِ
التَّكْرِيمِ، وَيُمَيِّزُهُ بِالْمَسْئُولِيَّةِ وَالْجَزَاءِ عَنِ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ - يُفَسِّرُ أَيْضاً
حِكْمَةَ الْخَلْقِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ لِغَايَةٍ تَتَمَيَّزُ مَعَهَا خِصَائِصُ الْإِنْسَانِ،
وَتَنْطَلِقُ مَوَاهِبُهُ.

وَهَذِهِ الْغَايَةُ هِيَ الَّتِي تَنْحَقُّ بِهَا الْحَيَاةُ.

الْحَيَاةُ بِمَعْنَاهَا الْبَاقِي الْمُمْتَدِّ. الْحَيَاةُ بِأَصَالَتِهَا وَمَعْرِفَةُ خَالِقِهَا.

الْحَيَاةُ، لَا الْمَوْتَ « وَالنَّاسُ نِيَامٌ، فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا » (2)

وَمَا أَحْكَمَ وَأَجْمَلَ وَأَصْدَقَ قَوْلَ الرَّسُولِ ﷺ:

« وَاللَّهُ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَتَامُونَ، وَلَتُبْعُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ، وَلَتَحَاسِبُنَّ

عَلَى مَا تَعْمَلُونَ، وَلَتَجْزُونَ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَاناً، وَبِالسُّوءِ سُوءاً، وَإِنهَا لَجَنَةٌ

أَبْدأ، أَوْ لِنَارٍ أَبْدأ » (3)

(1) الأنبياء: ٤٧.

(2) قول سفيان الثوري، رحمه الله تعالى.

(3) جمهرة خطب العرب: ١٤٧/١.

بهَذَا الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ تَصْلُحُ الْحَيَاةُ، وَيَتِمُّ التَّوَازُنُ وَالْإِعْتِدَالُ فِي دُنْيَا النَّاسِ، وَيَرْتَفِعُ النَّهْمُ الْأَبْلَهُ، وَالْجَشَعُ الْمَفْتُونِ، وَتَقْوُمُ الضَّوَابِطُ الْخُلُقِيَّةُ، الَّتِي تَحْجِزُ الشَّرَّ، وَتَرُدُّعُ الْفَسَادَ فِي دَاخِلِ النَّفُوسِ - أَوَّلًا - وَهِيَ تَعْلَمُ أَنَّهَا مَسْوُوقَةٌ بِعَمَلِهَا لِسَاحَةِ حَقٍّ، وَمِيْزَانِ عَدْلِ.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ

أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿١﴾.

فَتَقَرَّرُ عَيْنُ الْمَظْلُومِ الَّذِي فَاتَهُ الْحَقُّ فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ يُنْصَبْ لَهُ مِيزَانُ عَدْلِ فِيهَا. وَيَخِيبُ سَعْيُ الظَّالِمِ، وَقَدْ وَجَدَ اللَّهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ.

﴿وَعَنْتِ أَلْوَجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿٢﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ

مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿٣﴾﴾.

وَالَّذِي يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَرْقُبُ ذَلِكَ إِيمَانُهُ بِرَبِّهِ، وَرِضَاةُ بِحُكْمِ خَالِقِهِ وَعَدْلِهِ، وَيَقِينُهُ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِمَنْ خَشِيَ اللَّهَ وَاتَّقَاهُ، وَثِقَتُهُ أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ هِيَ الْحَيَاةُ، وَأَنَّهَا خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.

لِذَلِكَ قَلَّمَا تَرَى رَاضِيًا عَنِ رَبِّهِ يَقْتُلُ نَفْسًا لِيُخَلِّصَ مِنْ نِيرَانِ حَسْرَةٍ وَأَلَمٍ.

قَلَّمَا تَرَاهُ سَاحِطًا عَلَى قِضَاءٍ، أَوْ مُحْتَئِلًا فَخُورًا بِنِعْمَةٍ وَعَطَاءٍ.

إِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ حَسْرَاتِ النَّفُوسِ لَا يُطْفِئُ نِيرَانَهَا إِلَّا الرِّضَا عَنْ اللَّهِ، وَحُسْنُ الْإِسْتِجَابَةِ لِأَمْرِهِ، وَالْيَقِينُ بِقِضَائِهِ؛ فَهُوَ يَرْجُو رَبَّهُ، وَيَذْكُرُ

(1) آل عمران: ٣٠.

(2) طه: ١١١، ١١٢.

فَضْلُهُ، وَيُعَانِقُ الصَّبْرَ عَلَى ذَلِكَ إِلَى وَقْتِ لِقَائِهِ، وَالنَّعِيمَ بِجَزَائِهِ.
فَلَا يَسْخَطُ، وَلَا يَقْنَطُ مَعَ شِدَّةِ وَبَلَاءٍ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ عَرْضٌ
سَيَزُولُ، وَأَنَّ فِيهِ خَيْرًا لَوْ أَحْسَنَ تَدْبِيرَهُ.

عَنْ أَبِي يَحْيَى صُهَيْبِ بْنِ سِنَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا
لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ
فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (1)

وقال ﷺ: «أشدُّ النَّاسِ بِلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الْأَمْتَلُ فَالْأَمْتَلُ، يُبْتَلَى
الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا، اشْتَدَّ بِلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي
دِينِهِ رِقَّةٌ، ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرُحُ الْبِلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ
يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ» (2)

فَبِلَاءٍ مَنْ حَسَنَ دِينُهُ دَلَالَةٌ حُبٌّ وَرَضَى مِنْ رَبِّهِ.
وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ - فِي أَشَدِّ لَحْظَاتِ الْإِبْتِلَاءِ -: «إِنْ لَمْ يَكُنْ
بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أَبَالِي».

وَمَنْ تَدَبَّرَ الْعَوَاقِبَ - وَهُوَ رَاضٍ عَنِ رَبِّهِ - رَأَى مِنْهُ اللَّهُ فِي طَيِّ
الْمَكَارِهِ. وَكَمَ لِلَّهِ مِنْ مِنَّةٍ فِي طَيِّ الْمَكَارِهِ.

﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (3)

(1) مسلم: كتاب الزهد والرفائق.

(2) الترمذي، كتاب الزهد، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(3) النساء: ١٩.